المدونة
االمجلد 11/ العدد 01/ جوان 2024. ص 118- 135

صورة المثقف في رواية "ذاكرة الماء محنة الجنون العاري" للكاتب واسيني الأعرج

The image of the intellectual in the novel "the memory of water, the trial of naked madness" by wacini laredj

د. جليد أحمد *

تاريخ الإرسال: 2021/12/20	تاريخ القبول: 2024/04/30	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

يتناول هذا البحث صورة المثقف في رواية "ذاكرة الماء" لواسيني الأعرج، الذي يُدين واقع العنف والتهميش الذي تعرّض له المثقف، من خلال العمل على صياغة مرحلة الأزمة التي عرفتها الجزائر في التسعينات روائيا، وأثر تلك الأزمة على واقع الشخصية المثقفة، وعلى التكوين المجتمعي والنفسي. تنمو الأحداث في الرواية متوترة، حيث يستمر الراوي في توديع رفاقه تباعا، حتى أنه يفكر في الانتحار عندما يشعر بالعجز. إن "ذاكرة الماء" نص روائي تشرّب لغات متعددة، وظّف الكاتب في تشكيله التداخل الأجناسي، وتنوّع مستويات اللغة (اللهجات، أصوات المهمشين، لغات الشتم، الشعر، وقصاصات الجرائد، والشعارات التحريضية)، إضافة إلى معجم الرواية الذي ازدحم بألفاظ الموت وأدوات القتل.

الكلمات المفتاحية: ذاكرة الماء، واسيني الأعرج، المثقف، العنف، السلطة.

Abstract:

The present paper deals with the image of the intellectual through the novel "The Memory of Water, the trial of Naked Madness" written by the novelist Wacini Laredj who condemns the violence against the

* جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، ahmed.djlid@univ-mascara.dz

intellectual and his marginalization in the reality, by working on the fictional

formulation of the Algerian crisis of the nineties, revealing its impact on the reality of the intellectual's personality, as well as on the social and psychological personality of those who lived during that period.

Key words*: The Memory of Wate, Wacini Laredj, the intellectual, the violence, the power.*

المؤلف المرسل: جليد أحمد ahmed.djlid@univ-mascara.dz

*** *** ***

مقدمة:

تحاول رواية "ذاكرة الماء محنة الجنون العاري" للكاتب واسيني الأعرج أن ترصد مختلف التحولات التي مرّت بها الجزائر منذ الاستقلال إلى غاية عقد التسعينيات، على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي والأمني، من خلال وجهة نظر المثقف، ذلك أن الرواية «يمكنها على هذا النحو أن تعبّر بمرونة أكثر من جميع الفنون الأدبية الأخرى عن شخصية المثقف» (1).

ومن هنا كان موضوع البحث صورة المثقف في رواية "ذاكرة الماء محنة الجنون العاري"، إذ أصبحت الرواية أداة توثيقية عكفت على تسجيل الأزمة التي عرفتها الجزائر إبّان فترة التسعينيات حيث دخلت نفق العنف الذي حصد أرواح الجزائريين، ويرى حسين خمري أنّ ما تردد في رواية التسعينات هو تصوير معاناة المثقف وألمه إذ «وجد نفسه سجينا بين نار السلطة وجحيم الإرهاب وسواء كان أستاذا أم كاتبا أم صحفيا أم رسّاما أو موظفا فإنّهم يشتركون جميعا في المطاردة والتّخفي، وهو يشعرون دوما أنّ الموت يلاحقهم» (2). وقد كتب النص في السنوات التي سميت بالعشرية السوداء «داخل اليأس والظلمة بالجزائر ومدنٍ أخرى على مدار سنتين من الخوف والفجيعة بدء من شتاء 1993، ... وأنهي بالجزائر سنة 1995 ذات يوم شتوي» (3).

يهدف البحث إلى إبراز صورة المثقف في ظل الأزمة التي عصفت بالجزائر وكيف كانت انعكاساتها على المجتمع الجزائري، وما هو موقف المثقفين إزاءها، وما هي أنماط صورهم كما تجلت في الرواية، هذه الأسئلة وغيرها يحاول البحث الإجابة عليها، ولذلك اقتضت طبيعة الدراسة أن يقسّم إلى مقدمة ومباحث أربعة؛ تناول المبحث الأول أنماط المثقفين إذ قدّم الكاتب نماذج مختلفة من الشخصيات المثقفة، حيث ظهر التركيز فيها على رسم الشخصية من منظور تكوينها النفسي والفكري، ثم جاء مبحث المثقف والعنف من خلال الحديث عن العنف السياسي والعنف الجسدي والعنف النفسي، بعده تناولنا العلاقة بين المثقف والسلطة وموقفه منها، وأخيرا أبرزنا موقف المثقف من المدينة،حيث تكاد الرواية تتحرك في فضاء مدينة الجزائر، تحرك حذر غير حرّ لمثقف مهدّد، يلجأ إلى التنكّر. ويبدو عالم المدينة استمرارا لتجربة الراوي المتكلم، الذي ينتقل بين أماكن محدّدة، لكن هذه الأماكن تغادر مدلولاتها المرجعية المحتملة لتصبح دالة على "زنزانة كبرى" تتحول إليها المدينة كلها.

2. تعريف المثقف:

مصطلح المثقف من المفاهيم التي تعددت حولها التعاريف ووجهات النظر، وقد ظهر مصطلح المثقف على إثر قضية الضابط الفرنسي "ألفرد دريفوس" "Alfred Dreyfus" الذي اتّهم بالخيانة، وذلك حين نشرت جريدة الفجر "l'Aurore " العريضة التي تطالب بإعادة محاكمة الضابط بتاريخ 1898/01/14 تحت اسم "بيان المثقفين".

وسرعان ما أصبح المفهوم «يستخدم بشكل إيجابي للإشارة إلى شخص يشارك على نحو فاعل في الشأن العام للدفاع عن القيم» (4)، بوصفه صاحب قضية ومبدأ، ومدافع عن الحقوق والواجبات، ومناهض للاستبداد والظلم، من خلال الوعي بمكانته ودوره لأنه يدرك ويعي التعارض القائم فيه وفي المجتمع بين البحث عن الحقيقة العملية وبين الإيديولوجيا السائدة، فالمثقف؛ إذًا، هو «الشاهد على المجتمعات الممزقة التي تنتجه، لأنه يستبطن تمزّقها بالذات» (5).

ويعرّف توماس سويل المثقفين بأنهم «فئة المهنيين أولئك الذين تتعلق مهنهم في المقام الأول بالتعامل مع الأفكار، والكتّاب والأكاديميين، وما شابههم» (6). ويعتقد

"غرامشي" أن كل البشر مثقفون، ذلك أن لكل إنسان رؤية معينة للعالم ومستوى معينا من المعرفة، ولكنهم ليسوا جميعا مثقفين من حيث الوظيفة الاجتماعية، عندما نميّز المثقفين عن سواهم يقول "غرامشي": «لسنا نشير -في الحقيقة- إلا إلى الوظيفة الاجتماعية المباشرة التي تمارسها فئة من المثقفين المحترفين» (7). وينقسم المثقفون من الناحية الوظيفية إلى قسمين: المثقفون المحترفون "التقليديون" كالأدباء، والعلماء،...وغيرهم، وهناك المثقفون "العضويون" الذين يضطلعون بتوجيه أفكار الطبقة التي ينتمون إليها عضويا.

3. ملخص عن الرواية:

ينفتح النص الروائي على الوقائع السياسية والاجتماعية والثقافية التي عرفتها الجزائر إبان فترة الأزمة التي عصفت بالبلاد وبخاصة بين سنتي 1993-1995 تاريخ كتابة القصة.

شخصية الرواية المحورية "سي موح" أستاذ جامعي وكاتب يعيش تحت طائلة التهديد بالموت بسبب ما آلت إليه الأوضاع، حين دخلت البلاد في صراع مسلح، انتقل للإقامة عند صديقته "فاطمة" مع ابنته "ريما" التي بقيت معه، بينما هاجرت زوجته "مريم" وابنهما "ياسين" إلى فرنسا، يتذمر الأستاذ من هذه الأوضاع، والتحولات الطارئة على المجتمع، والأفكار الجديدة التي يقول عنها أنها شحنت عقول الناس لتغيير سلوكهم سلبيا.

الرواية تختصر كل أحداثها في يوم واحد من عمر الأستاذ، ومنه ينطلق الكاتب إلى سرد ماضي البطل، وطفولته القروية، وحاضره وما يلازمه، كما تطرق إلى كل المراحل التي مرت بها الجزائر بعد الاستقلال، ويتمثل برنامج يوم البطل في إرسال رسالة عن طريق البريد إلى زوجته "مريم"، بعدها يشتري كتابا لها، ثم يتوجه إلى المطبعة للاستفسار عن روايته الأخيرة التي لم تطبع بسبب الظروف والخوف، ويلتقي في المطعم بصديقته "نادية" الصحفية، ويحضر جنازة صديقه الحميم "يوسف" الذي قتل ذبحا، وبين هذه الانتقالات يصور البطل حالة الخوف التي يعيشها، ولكنه يحاول أن لا يستسلم لهذا الوضع، حتى ينهي برنامجه ويعود للبيت.

4. أنماط المثقف في الرواية:

قدّم الكاتب "واسيني الأعرج" نماذج مختلفة من الشخصيات المثقفة، حيث ظهر التركيز فيها على رسم الشخصية من منظور تكوينها النفسي والفكري الموروث أو المكتسب «من طبيعة النسق الاجتماعي والحضاري الخاص والمحدّد الذي ينتمي إليه هذا المثقف أو ذلك» [8]؛ فكلّها شخصيات تتمتع بتكوين ثقافي أسهم في تجسيد مصائرها، وما انتهت إليه وتعرضت له في مسيرة حياتها.. إنها رواية الشخصيات المأزومة بطموحاتها، والمحاصرة بأحلامها، حيث يبدو هاجس الحياة أسًّا ومحرّكا تنهض عليه أحداث الرواية، وفي ضوئه تعيش الشخصيات تحولاتها السلوكية والنفسية، كما أن تعدّد الشخصيات المثقفة في هذه الرواية يمكن أن تحيل إلى شخصية واحدة نظرا إلى التشابه من حيث المواقف والأدوار التي تنهض بها داخل مساحة السرد .. وتعكس هذه الشخصيات وجها من وجوه الشخصية الرئيسة "الأستاذ أو (سي موح)" الذي هو الشخصية المفردة بصيغة الجمع «يقتلوننا الواحد تلو الآخر».

1.4 المثقف الملتزم:

المثقف الملتزم هو الذي يشتبك إيجابيا مع قضايا مجتمعه، وهو الذي وصفه "غرامشي" بالمثقف العضوي الذي يعيش هموم مجتمعه، ويسعى للتأثير والتغيير.

- "سي موح": أستاذ جامعي وروائي، متزوج من "مريم" الأستاذة الجامعية، له منها "ياسين" و"ريما"، تختار زوجته مغادرة البلاد إلى فرنسا رفقة "ياسين" بينما يبقى هو مع ابنته "ريما" ولكنه ينتقل للعيش في بيت فاطمة حرصا على حياته بعدما بات مهددا بالقتل.

يستمد الأستاذ من علاقة الحب التي يعيشها مع "مريم" زوجته كل معاني الصمود؛ فصورتها ما تزال شامخة، تركض في ذاكرته، تتسلق دمه كل لحظة، ذلك أن الحب «وسيلة لتحرير الشخصية من أسر الذات والسماح لها بأن تتوحد مع ذات أخرى» [9].

- "يوسف": أستاذ جامعي، شاعر وفنان يكتب الشعر بالفرنسية، وناشط سياسي، صاحب الوجه الصغير، نحيف الجسم، نادرا ما يضحك، من أقرب الناس إلى "سي موح" وابنته "ريما"، يقول ما يحسّه بعفوية، كل ما قاله صار حقيقة، سجن كثيرا؛ سجن بعد انقلاب 1965، وقبل أحداث أكتوبر 1988، وأدخل مستشفى المجانين. يقول عن نفسه: «في هذه البلاد لم أرَ إلا الظلام ظلام الحفرة وظلم السجن وظلام مستشفى المجانين» (10). قتل مذبوحا في اليوم الذي كان فيه على موعد مع عضو من أعضاء منظمة حقوق الإنسان الدولية ليسلمه قرار لجنة التعذيب حول تجاوزات أحداث أكتوبر.

2.4 المثقف الانتهازي:

المثقف الانتهازي هو من يقوم باقتناص الفرص واستغلال أي وسيلة لتحقيق المنفعة الشخصية، والاستفادة من كل الظروف الممكنة بطريقة غير أخلاقية، وهو لا يعرف له موقع واضح في خريطة الصراعات الاجتماعية، يتقلب على وفق ما تقتضيه المصلحة الخاصة. وقد أشار الدكتور سماح إدريس إلى أسباب وجود عدد ضخم من المثقفين الانتهازيين في الروايات العربية منها؛ الفقر، ورفض الروائيين أنفسهم للانتهازيين والاشمئزاز منهم، ثم حاجة السلطة إلى المثقفين الانتهازيين يخدمون مصالحها وينشرون سياساتها، وشعور الانتهازيين "بشرعية" مواقفهم، وعبث المقاومة وعدم جدوى المكابرة أمام جبروت السلطة (11).

"عبد الله":

من أبرز المثقفين الانتهازيين في الرواية "عبد الله" زميل "سي موح" الأستاذ الجامعي والصحفي المحترف بجريدة "الجمهورية" وخبّاز ورث مخبزة في وسط المدينة عن والده، يعرفه جيّدا «لم أكن أحبّه. ولكن بُعد الشقة يورث أحيانا حالة نادرة من التّسامح» (12). وقد كان أيام الدراسة بالجامعة مروّجا للمخدرات والإشاعة «إنه يعرف من أين تُؤكل الكتف، كنّا طلبة في وهران، كنّا ندرس في الجامعة، وكان يتاجر في المخدرات والذهب. وتخرّج معنا بمعدلات عالية» (13). شعاره كان في هذه البلاد كل شيء قابل للبيع والشراء. - هم يبيعون وأنا أشتري» (14). حقًّا يقول باسكال بونيفاس: «يذهلني

أولئك المثقفون والخبراء الذين لا يتورعون عن اللجوء إلى حجج مخادعة، وعن إطلاق الأكاذيب من أجل حصد التأييد. تبدو وقاحتهم وانعدام ذمّتهم بلا حدّ، وتشكّل ورقة رابحة» (15).

قام باستخراج وثيقة قدماء المجاهدين، وكان يشتري الدرجات إلى أن تحصّل على شهادة الدكتوراه. طريقته في التدريس في الجامعة خاصة. يعطي درسا في بداية السداسي، ودرسا في نهايته ثم يمتحن الطلبة في درسين. هو مرتاح. الطلبة مرتاحون، والإدارة مرتاحة.

بدأ يفكر في مغادرة البلاد بعدما أحيل على التقاعد، رغم أنه ليس مهددا بالقتل، ورغم أنه كتب مقالات تمجيدية في الجميع، ولكنه «من الذين يفكرون في المغادرة حتى يستقيم الوضع وأعود فاتحا كما فعل الأجداد الذين صعدوا إلى الغابة في اليوم الأخير من الحرب، ونزلوا من هناك أبطالا» (16).

يتعجب "سي موح" من منطقه، أليس هو الذي كتب قبل مدّة أن الذين خرجوا من البلاد هم حَرْكة وخونة، وأن الغد لا يُصنع إلاّ على هذه الأرض وما عداها كله كذب.

- البارح هذاك وقت وهذا وقت آخر.

- أنت تغني أغنية لم تعد موجودة إلا في ذهنك، هذه لغة الخشب» (17).

مدير جريدة السلام:

مدير الجريدة التي تعمل فيها "نادية"، أول من صادرها وأقام لها محاكمة، لتصبح في نظره حَرْكِيّة تخدم أسيادها الفرنكفونيين، ولولا صلابة المسؤول النقابي في الجريدة لطردها، لأنها كتبت يوم اغتيل الكاتب الطاهر جاووت أن المستقصد ليس الكاتب بالفرنسية، ولكن العقل الحرّ والمناهض.

-« في جريدة تابعة للقطاع العام ويعمل لمصلحة القتلة في نهاية المطاف.

- لا يخبئ ذلك مطلقا، إنه يهيئ شيئا آخر في الأفق. كل من يخالف رأيه هو لائكي-شيوعي، أو اندماجي جديد، وأبناؤه كانوا يدرسون في مدرسة ديكارت قبل أن تُغلق.

- هؤلاء الناس تجدينهم على كل الموائد، هم مع من يعطي أكثر » [18].

3.4 المثقف السلبي/ الحيادي/ الصامت:

المثقف الحيادي هو صاحب لا موقف، غير منحاز إلى الحق والعدل، هو سلبي في النتيجة.

المثقف الحيادي في الرواية تمثله كل من "فاطمة" و"نادية" و"إيماش" و"الأساتذة زملاء سي موح" وحتى "مريم" و "أحمد صاحب المطبعة" و"فضيلة مديرة المتحف الوطني".

"فاطمة": صديقة "سي موح" يقيم في بيتها مع ابنته "ريما"، وهي موظفة في وزارة الثقافة وتنشط في قسم الفن والسينما والصحافة، ويعتقد "سي موح" أنها تشغل بال الناس بأمور عديمة الفائدة، تقول:

- «شفت؟ منْ يشبهني؟ سبع صنايع والرزق ضايع. وفوق هذا أشتغل في أوسخ جريدة وطنية لكن وساختها لم تمنعها من سحب "3" آلاف نسخة من كل إصدار. لقد حشوا الناس بكل القذرات، ربّوهم ليكبروا ضد أنفسهم.

- لماذا تشتغلين فيها وأنت تعرفين أنها رديئة؟

- واش تحبني ندير. لم أخسر شيئا أُوصل أفكاري كما أريد. أخترقهم من داخلهم. أكسب قراءهم ومناصريهم. أنا أنجز صفحة السينما وهي مقروءة جدًّا»[19].

ترى فاطمة أن هذه الصفحة متنفسها الوحيد وسط هذا البؤس وقساوة الحياة التي تزداد كل يوم، تقول: «... راتبي لا يعيّش حتى ابنتي التي صارت احتياجاتها مرهقة. لا أريد أن أنتحر ولا أريد أن أغادر هذا البلد» [20].

"نادية": صديقة "سي موح" صحفية، مهددة بالقتل، اضطرت إلى مغادرة بيت والدتها والعيش عند صديقها الفلسطيني الذي انتهت معه إلى زواج سريع لم يدم طويلا. مصممة على الحذر منذ أن بدأوا يغتالون الصحفيين.

- «ولهذا يا نادية قلت لك لماذا لا تقولين مثل هذا الكلام في الجريدة التي تعملين بها. أو في جرائد أخرى، التاريخ يسجل ويمحو، أكثر من ذلك لم يعد لدينا ما نخاف عليه، الموت صار أمامنا وورائنا والكتابة قدرنا، فلنكتب، ونكتب، ونكتب عن كل المعاصي

... أنت أستاذ جامعي وظيفتك في الجامعة، أما إسهاماتك في الجرائد فهي حرّة وهم يعرفون ذلك جيّدا ولهذا ينشرون لكم ... وحياتك لا تتضرر، أما نحن فهذه حياتنا، وإذا لم ينشروا لنا سنتهم بالتقصير، وبعدها نطرد، وقد فعلوا ذلك مع الكثيرين [21].

الأساتذة: تفاجأ "سي موح" من زملائه الأساتذة الذين رفضوا الحضور معه في اللجنة لمناقشة طالب الدكتوراه بسبب أن الأستاذ "سي موح" مهدّد، وإذا شاركوا سيصبحون مهددين بدورهم.

- لا يمكن أن تصل حالة الجبن بالناس إلى هذه الدرجة [22].

صمت الناس: إن ما يخيف "سي موح" حقًّا هو صمت الناس.

- المخيف في هذه المدينة التي بدأت تخسر روحها، أن يظل الناس صامتين على هذه المقتلة [23].

الحادثة ترويها فاطمة للأستاذ "سي موح"، تقول:

- «... عبد الرحمن جار أمّي ذبح قبل يومين على مرأى من الناس ... سمعت أمّي صرخته الجافة، طلت من النافذة، صرخت بأعلى صوتها، أغلق الناس نوافذهم وأغمضوا عيونهم، شتمت كل سكان البناية..[24].

المثقف المهاجر: وهو المثقف الذي اختار أن يغادر البلد

اتّخذت "مريم" قرارها بمغادرة البلاد رغم بقاء زوجها مع ابنته "ريما"، كانت ممزقة بين الخوف على حيلة زوجها وبين أن تقيّد حركته.

"فضيلة مديرة المتحف الوطني": سيدة صلبة رغم رسائل التهديد التي كانت تصلها لكنها لم تستطع الصمود أكثر خاصة عندما وصلها إشعار باستلام طرد من البريد المركزي، هنالك شعرت بخطورة الوضع، وقررت الاستقالة ومغادرة البلاد.. تقول:

- أصبحت اليوم أفكر في مغادرة البلاد، وعندما سألتها، إلى أين؟ قالت: إلى جهنم، ليس الأمر مهمًّا على الإطلاق، نموت من أجل مَنْ؟ [25].

"أحمد صاحب المطبعة": صديق "سي موح" وصاحب المطبعة، غادر بيته في شارع باش جراح، لأن الكثيرين منهم يعتبرونه مروّجا للكتب الشيوعية. ولهذا قرر المغادرة.

- يا خويا تعبت، بدأت أفكر في بيع كل شيء والسفر إلى تونس، هناك إمكانية كبيرة لتنشيط مشروع النشر، تعرف أني لا أستطيع أن أبقى هكذا مكتوف الأيدي. [26]

5. المثقف والعنف:

ليس العنف طارئا أو غريبا على سلوك الإنسان، بل هو ظاهرة قديمة، فماضي البشرية سلسلة متواصلة من الحروب والنزاعات، ولذلك «نرى حضور العنف في كثير من الخرافات والأساطير القديمة، حيث تُظهر لنا هذه الأساطير ارتباط العنف بالأصول الأولى، فهو مرافق دائم للأبطال والمؤسّسين وجزء لا يتجزأ من كل تاريخ البشرية» [27].

وقد يتّخذ العنف أشكالا كثيرة منها «القتل، والسجن، والتعذيب، والإبادة، والاستعباد، ... وكل ما يلحق ضررا جسديا أو نفسيا أو اعتباريا بالشخصية، ويرغمها على ما لا ترغب فيه» [28]. وتجد صور العنف هذه «تجلياتها في الآداب السردية حتى يكون شرطا إنسانيا ملازما للنوع الإنساني ولتمثيلاته الأدبية» [29].

1.5 العنف السياسي:

يعرّف العنف السياسي بأنّه «استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية» [30].

يستدعي الكاتب أحداث 05 أكتوبر 1988، حيث تمّ مداهمة بيت "يوسف" واعتقاله وِقائيًا..

- «طيب واش صار؟ لم أكتب لا شعر ولا مقالة، حتى الرسم لم أرسم إلا الهبال الذي لا قيمة له إلا لدي.

- هذا إجراء وقائي فقط، خوفا عليك» (31).

ولكنه سرعان ما يعرف الحقيقة في اليوم الموالي، لقد اندلعت أحداث أكتوبر.

ثم موقف آخر تمثل في إلغاء نتائج الانتخابات ودخول البلاد دوامة العنف.

2.5 العنف الجسدي:

العنف الجسدي هو كل ما يلحق ضررا جسديا بالشخصية، أو اعتداء يؤدي إلى أذى بدني قد ينتهي بالموت. ومن العنف الجسدي في الرواية مقتل كل من المفكر بوخبوة، والشاعر سيناك، وعزيز، وعبد الرحمن، ومقتل يوسف.

يطالعنا في الرواية مشهد آخر للعنف الجسدي تمثل في ما قاله يوسف حول أحداث أكتوبر(32). وكذلك مشهد اغتصاب "نواره" (33).

3.5 العنف النفسي:

العنف النفسي يتجلى في:

- الملاحقة وإرسال الرسائل التهديدية: من وسائل التخويف الملاحقة، شعر الأستاذ "سي موح" بالملاحقة حين واجَهتْهُ ملامح رجل مشبوه، شعر بظله، ارتبك الشاب عندما أدخل الأستاذ يده في جيبه، وهو يقول بنوع من التلعثم:

- «سألت شباب الحيّ، فوجهوني نحوك، كنت أعمل سائقا لسيارة أجرة، عند شخص، تخلّى عنّي وأنا الآن بدون عمل، فهل تستطيع مساعدتي للحصول على عمل»(34).

وقد حاول الشاب مرة أخرى ملاحقة الأستاذ الذي كان برفقة "مريم" عندما سبقهما إلى مدخل البناية، ولكن ما إن تعرف عليه الأستاذ حتى خرج مسرعا.

أما الرسائل فكانت تتوالى وتتصاعد، وحين فتح إحدى الرسائل واجه تهديدا مباشرا «أيّها الطواغيت الصغار، سترون أيّ منقلب تنقلبون ... الإنذار الأخير» [35].

ويتمثل العنف النفسي كذلك فيما كان يكتب على أسوار المدينة والمحلات وعند بوابات الساحات والمقاهي الشعبية من خطابات التخويف على نحو:

- «أيّها الشيوعيون ستذبحون حتى ولو تشبثتم بأستار الكعبة. قل إن الإرهاب من أمر ربي» [36].

- «أيّها الكفرة يد الجهاد ستطالكم حتى ولو كنتم في حصون منيعة أو تعلقتم بأستار الكعبة» [37].

ومن مظاهر العنف النفسي التحرش الذي تعرضت له "نادية" حين ذهبت تبحث عن عمل لأول مرّة، وعندما أرادت تحضير الماجستير وما حدث لها مع الأستاذ والمدير [38]. وكذلك حادثة تحرش السكرتير العام للجامعة بـ "إيماش". لقد كان الجنس تعبيرا عن الحرمان الاجتماعي والتعسف وأداة لتجسيد فكرة العنف.

6. المثقف والسلطة:

تشكل العلاقة بين المثقف العربي والسلطة إشكالية، فبينما تمكّن المثقفون في الغرب من ترسيخ مواقف واضحة تجاه سلطات بلدانهم، وأصبحوا مؤثرين في مجتمعاتهم، لا زال المثقف في البلدان العربية عرضة لحالات التهميش، والإقصاء، والاعتقال والسجن، والإغواء، وعلى هذا «فالعلاقة بين المثقف والسلطة لا تخرج عن أن تكون علاقة ثنائية سواء كانت استبعادية أو توفيقية» [39]. وليس المقصود بالسلطة الجهاز المركزي بل هي كذلك «الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية إلى غير ذلك، وأن موقف المثقفين سواء داخل جهاز الدولة أو خارج هذا الجهاز إنما يختلف باختلاف طبيعة هذا الجهاز وطبيعة سياساته» [40].

تبدأ أزمة المثقف الجزائري منذ الاستقلال وتتأزم تدريجيا لتصل إلى ذروتها في العشرية السوداء حيث تسقط كل الأقنعة لتظهر ملامح مثقف بلا دور، ويعيش بلا

قيم، ولهذا يدين الكاتب على لسان إحدى الشخصيات غياب المثقفين وسكوتهم، ويحمّلهم ما آلت إليه الأوضاع في البلاد.

- خليها تخلا. سكوتكم أنتم أيّها المثقفون هو الذي أدّى بالبلاد إلى الهلاك» (41).

شخصية المثقف مهيمنة على الرواية، من خلال تصوير الكاتب حالة المعاناة التي يعيشها المثقف بسبب ما لحقه من إقصاء وتهميش من قبل السلطة، «المثقف في هذا البلاد بهدلوه، جرّموه، عزلوه، قتلوه، واليوم يجهزون عليه..» (42). وبكل مرارة السخرية يصوّر الكاتب وجود المثقف ودوره، فيقول: «في هذه البلاد الآمنة من عين كل حسود كما يقول الأجداد المندثرون، المثقف لا يحقق وجوده الفعلي إلا عندما يموت ويودّع محيطه.. »(43). ومن المفارقة يقول الراوي مخاطبا صديقته "إيماش": «لقد نفرتنا البلاد يا إيماش حتى صرنا نموت وكأنه كان يجب أن نموت» (44).

ولأن المثقف يعرف أكثر مما ينبغي، يدس أنفه حيث لا يجب، يناضل في سبيل تحقيق الحرّية، فإنه يظل في صدام مع السلطة، التي تلجأ إلى استعمال الضغوطات المعنوية والمادية المتمثلة في النفي والاعتقال والسجن والطرد من الوظيفة «كلما صرخت أجد نفسي وراء القضبان. كل شيء يسقط على رأسي. في مطلع السبعينات سُجنتُ، ولم أكن في الحقيقة أعبّر إلا عن احتجاجي مع أصدقائي ... وفي مطلع الثمانينات عندما سُجن المخرج السينمائي رشيد بن ابراهيم وخرجنا في مسيرة صامتة داخل العاصمة، خرجت ليلا من بيتي ولم أعد إلا بعد ثلاثة أيام، إلى اليوم لا أعرف أين كنت، وماذا ركبت، وماذا فعلت، وماذا فعلوا بي؟»(45)، وما تعرّض له "يوسف" كذلك من اعتقال وسجن. فالسجن، إذًا، يمثّل شكلا من أشكال تجليات العلاقة بين المثقف والسلطة، أو بين الحرية والقمع، ففي حين يسعى المثقف إلى التعبير عن رأيه وفكره بحرية، تسعى السلطة إلى الدفاع عن وجودها بشتى السبل، ومن ثم يحدث الصدام، ويزجّ على إثرها المعارضون لتلك السلطة من المثقفين في السجون والمعتقلات السياسية.

وفي مشهد آخر من الرواية يصوّر الكاتب كيف أطاحت البلديات الإسلامية الجديدة بكل ما يرمز إلى الثقافة في محاولة تغيير وجه المدينة الثقافي مثل غلق المسرح الوطني ومراكز الثقافة والإعلام، وحتى المتحف الوطني لم يسلم هو الآخر من الغلق (46)،

ومن مظاهر العلاقة بين المثقف والسلطة ما تعرضت له "نادية" من طرف مدير الجريدة الذي أقام لها محاكمة وكاد أن يطردها لولا صلابة المسؤول النقابي في الجريدة (47).

7. المثقف والمدينة:

المكان الروائي ليس حيّزا جغرافيا أو بُعدا هندسيا، بل هو في العمل الفني «شخصية متماسكة، ومسافة مقاسة بالكلمات، ورواية لأمور غائرة في الذات الاجتماعية. ولذا لا يصبح غطاء خارجيا أو شيئا ثانويا. بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلّما كان متداخلا بالعمل الفني» (48). وهو المجال الحيوي لحركة الشخوص والأرضية التي تجري عليها الأحداث.

فضاء الرواية يتكون من: المدينة، والقرية، والبيت، والجامعة، والبحر، والشارع، والمطعم، والمقبرة.. وتكاد الرواية تتحرك في فضاء مدينة الجزائر، تحرك حذر غير حرّ لمثقف مهدّد، يلجأ إلى التنكّر. ويبدو عالم المدينة استمرارا لتجربة الراوي المتكلم، الذي ينتقل بين أماكن محدّدة، لكن هذه الأماكن تغادر مدلولاتها المرجعية المحتملة لتصبح دالة على "زنزانة كبرى" تتحول إليها المدينة كلها، إذ تصاغ هذه الأماكن بإحساس السجين المقهور، الذي لم يخرج من حصار الجدران، حيث بدا البيت حيّزا باردا يجري فيه عزل الإنسان عن مجتمعه، والمفارقة التي أبرزتها الرواية أن المثقف يشعر أنّ البيت سجن يحمله داخله ويعيش في ضيقه، فكأنما البيت يمثل حلقة في سلسلة الضيق التي يعيشها، فيظل أسير إحساسه بالضيق وبالرعب وبالخوف تمنعه من ممارسة أشكال من العلاقات الطبيعية، وذلك أنّ «لغة العلاقات المكانية وسيلة من الوسائل الرئيسية لوصف الواقع» (49)، وكشف أغوار النفس الإنسانية، إذ «عادة ما يرتبط المكان على مستوى الرمز ببعض المشاعر والأحاسيس، بل ببعض القيم السلبية أو الإيجابية» (50).

ولقد غدت المدينة مشوّهة، كل زاوية فيها مصدر للخوف «يقصر طريق المدينة بسرعة، عندما يصير طريقا يؤدي إلى الموت، إلى القاع. أقول أحيانا لصديقتي فاطمة التي يملأني خوفها عليّ. بين بيتك والمدينة ظلالٌ وخوف وهوة سحيقة، ومدينة تنزف»(51).

يرى الأستاذ "سي موح" المدينة فضاء حزينا استولى عليه الموت، والزمن فيه صار رديفا للحياة والنجاة وأحيانا الموت، حيث أصبح مسرحا للاغتيالات والمجازر، ويطلق الأستاذ على المدينة أسماء من قبيل "القفر" و"المدفنة"، يقول: «عندما أقرأ هذا الخراب، أطمئن نفسي وأحزن لهذا الوطن، ويزداد يقيني أكثر بأني لست بكل هذه الخطورة التي يتصورها الذين يريدون قتلي. مجرد كائن بشري ضائع داخل **قفر** اسمه المدينة » [52]. هناك، إذًا، ما يشير بأن هذا المكان الموضوعي محدد الخصائص هو المقابل الخارجي الموضوعي لهذا المكان الداخلي الذي بدّدته يد الزمن؛ مكان الذاكرة التي صارت خرابا، ومكان الحلم الذي صار كابوسا، ومكان الحلم الذي صار كارثة، ولعل إقفار المدينة من الحياة يعدّ من أبرز تجليات القبح في المسرودات الروائية العربية، وخلوّها من كل ما يجعل المدينة مدينة [53].

ويبدو أن الراوي المتكلم يصور المدينة على وفق وجهة نظره وحالته النفسية، «كان أمامنا يوم واحد قبل العودة إلى **مدفنة** كبيرة اسمها المدينة» [54]، إذ لابد أن ينظر إلى المكان على «أنّه تكوينات أو بنى أو حالات معرفية ووجدانية، تكون موجودة لدى الأفراد والجماعات» [55]. ثمّ هاهي ذي تستسلم لحكامها الجدد الذين أحالوها إلى صحراء، وإلى سجن يمزّق الصلات بين الفرد والآخرين، وينفي القدرة على الحركة في الأماكن، «إني أختنق يا مريم في هذه المدفنة..» [56].

ينتقد السارد سلبية الإنسان في هذه المدينة حين استسلم لهذا الواقع السلبي، وأصبح يتهاوى مثل مدينته التي تحتضر «والمدينة هي المدينة. والناس هم الناس، يمشون رؤوسهم منكّسة كالرايات المهزومة، حتى مقهى لابراس منذ اغتيال أستاذ الترجمة فيه لم يعد مغريا وبدأ يتحوّل إلى مزبلة مقابلة للجامعة» [57].

ومن هنا تبدو المدينة وكأنها تولد وتتشكل وتتغير قيّمها، إن علاقة الأستاذ بالمدينة علاقة مشروخة يشوبها التوتر والإحساس بالانكسار، إذ «يرتبط المكان ارتباطا لصيقا بمفهوم الحرية. وممّا لا شكّ فيه أنّ الحرّية -في أكثر صورها بدائية- هي حرية الحركة. ويمكن القول إن العلاقة بين الإنسان والمكان -من هذا المنحى- تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الأفعال

التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي، لا يقدر على قهرها أو تجاوزها» [58].

إن المعادل للمدينة موجود، إنّه البحر الذي تتوفر فيه كل عوامل النقاء، البحر يحتوي على درجة قصوى من التعلق الحميمي للسارد المسكون بفتنة الأمكنة. البحر رحم للألفة، ومحراب لصلوات العاشق في حضرة غوايته. «-أعرفك مجنون البحر، قلت على الأقل تتنفس هواء آخر، غير البارود والموت أو منفى المقبرة التي تسكنها» [59].

8. خاتمة:

حاول "واسيني الأعرج" في هذه الرواية أن يرصد مختلف التحولات التي مرّت بها الجزائر منذ الاستقلال إلى غاية عقد التسعينيات، على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي والأمني، من خلال وجهة نظر المثقف، في ظل الأزمة التي عصفت بالجزائر وكيف كانت انعكاساتها على المجتمع الجزائري، وما هو موقف المثقفين إزاءه، حيث تعكس هذه الشخصيات وجها من وجوه الشخصية الرئيسة "الأستاذ أو (سي موح)" الذي هو الشخصية المفردة بصيغة الجمع.

9. الهوامش:

[1]- الشاذلي عبد السلام، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1985، ص10.

[2]- حسين خمري، فضاء المتخيل مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2002، ص196.

[3]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء محنة الجنون العاري، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، دمشق، 2008، ص9.

[4]- جان بول سارتر، دفاع عن المثقفين، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، ط1، بيروت، 1973، ص34.

[5]- مراد دِياني، المثقف والتحوّل التاريخي: مفكّرًا وفاعلا، ضمن دور المثقف في التحولات التاريخية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2017، ص18.

[6]- توماس سويل، المثقفون والمجتمع - أنماط المثقفين العامة وأثرها في حياة الشعوب، ترجمة: عثمان الجبالي المثلوثي، كتاب العربية 18، وزارة الثقافة والإعلام، الرياض، ط1، 2011، ص20.

[7]- أنطونيو غرامشي، قضايا المادية التاريخية، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 2018، ص145.

[8]- الشاذلي عبد السلام، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، ص30.

[9]- نيقولاي برديائف، العزلة والمجتمع، ترجمة: فؤاد كامل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، القاهرة، 1982، ص176.

[10]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء محنة الجنون العاري، ص293.

[11]- ينظر: سماح إدريس، المثقف الانتهازي والمثقف الهروبي في رواية التجربة الناصرية، مجلة الآداب- بيروت، مج 40، ع1-3، 1992، ص38-39.

[12]- ذاكرة الماء، ص261.

[13]- المرجع نفسه.

[14]- المرجع نفسه.

[15]- باسكال بونيفاس، المثقفون المزيفون النصر الإعلامي لخبراء الكذب، ترجمة: روز مخلوف، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2013، ص5.

[16]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص261.

[17]- المرجع نفسه، ص262.

[18]- المرجع نفسه، ص270.

[19]- المرجع نفسه، ص177.

[20]- المرجع نفسه، ص177.

[21]- المرجع نفسه، ص272.

[22]- المرجع نفسه، ص216.

[23]- المرجع نفسه، ص159.

[24]- المرجع نفسه، ص199.

[25]- المرجع نفسه، ص239.

[26]- المرجع نفسه، ص253.

[27]- سلمى بلحاج مبروك، أصول العنف مقاربة من أجل فهم ظاهرة العنف وميكانيزماتها، ضمن: العنف قضايا وإشكالات، مجموعة باحثين، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، ط1، الرباط، 2018، ص13.

[28]- عبد الله إبراهيم، الأرشيف السردي- الأحلام، العنف، السخرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2019، ص116.

[29]- المرجع نفسه، ص115.

[30]- حسنين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ط2، بيروت، 1999، ص48.

[31]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص293.

[32]- المرجع نفسه، ص 294.

[33]- المرجع نفسه، ص297.

[34]- المرجع نفسه، ص20.

[35]- المرجع نفسه، ص51.

[36]- المرجع نفسه، ص50.

[37]- المرجع نفسه، ص211.

[38]- المرجع نفسه، ص272-273.

[39]- محمود أمين العالم، المثقفون والسلطة في المجتمعات العربية، مجلة أدب ونقد، العدد 38، ماي 1988، ص8.

[40]- باسكال بونيفاس، المثقفون والسلطة في المجتمعات العربية، ص8-9.

[41]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص 270.

[42]- المرجع نفسه، ص211.

[43]- المرجع نفسه، ص198.

[44]- المرجع نفسه.

[45]- المرجع نفسه. ص73.

[46]- المرجع نفسه، ص155-156.

[47]- المرجع نفسه.

[48]- ياسين النصير، الرواية والمكان، الموسوعة الصغيرة 195، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، (دط)، بغداد، ص17.

[49]- يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم دراز، مجلة البلاغة المقارنة أَلِف، شركة دار إلياس العصرية، القاهرة، العدد 6، ربيع 1986، ص89.

[50]- سامية أسعد، القصة القصيرة وقضية المكان، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج 2، العدد 4، 1983، ص186.

[51]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص209.

[52]- المرجع نفسه، ص73.

[53]- صلاح صالح، المدينة الضحلة تثريب المدينة في الرواية العربية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، (دط)، دمشق، 2014، ص98.

[54]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص129.

[55]- شاكر عبد الحميد، الوعي بالمكان ودلالته، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج 13، العدد 4، 1995، ص250.

[56]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص191.

[57]- المرجع نفسه، ص53.

[58]- يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، ص82.

[59]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص308.

*** *** ***